

(الوعي الشقي) اليسار الاروبي والصهيونية

عبد الكبير الخطيبي

إذا كان علي ان اعطي تعريفا موجزا للصهيونية لقلت انها عودة تهكمية للوعي الشقي . ذلك ان الوعي الشقي ، كما يحدده (ج . فال) في حديثه عن هيجل هو قبل كل شيء ، « وعي بالازدواجية والتناقض » .

وبما أنه وعي ممزق منفصل مقسم على نفسه فهو ينحل الى تناقضات لا متناهية . وهذا الانقسام الدائم المؤلم الذي يقوم على جدلية الخطيئة والالام ، والعذاب والاختيار ، سرعان ما يجد تبريره - كما هو الشأن عند الديانات الابراهيمية - في تجاوز وخارج مطلقين ، في اله لا متناه ، يعكس هو الآخر هذا الانفصال بشكل لا نهائي .

انه تجاوز مطلق يلقي بالمومن في غياب مزدوج : فهو يدفعه في الماضي مثلما يرمي به نحو المستقبل ، ذلك أن الوعد بحياة ابدية عندما يضالغ على مستوى الفكر بين الايمان والياس ، فانه يجعل الشقي غريبا عن ذاته ، خارجا عن الزمن . والحال أن الحنين الى الارض المفقودة قد اوهم الوعي اليهودي بذهاية هذا الشقاء وانقضاء ذلك المنفى ، واختفاء تلك الفوارق التي لا تطاق ، والتي تجعل الشقي يعيش التاريخ « مندفعاً نحو الامام مجرورا الى خاف » على حد تعبير (كبير كارد) ، واعني في انفصال مطلق عن الوجود التاريخي .

لسنا نحن الذين ننعت الصهيونية ، على هذا النحو ، بأنها حركة تبشيرية معكوسة . انه (دوق باريز) أحد المنتسبين بالصهيونية هو الذي كتب : « ان الامر لا يتعلق بشرود ذهني ، ولا هلوسات تاريخية ، وانما بوقائع حقيقية . انه التاريخ مقاوبا مثلما كانت الافلام الاولى لهذا القرن تعرض السياح وهو ينبعث من قلب الماء ورجله في الهواء ليصعد المنحدر الموهوم ويستعيد مكانه فوق المغطس » .

سننمين بتفصيل كيف تقاب الايديولوجية الصهيونية (بمختلف

اشكالها) هاته المفاهيم الاساسية كمفهوم الارض الموعودة ، ومفهوم الاصل والمكان المركزي المحوري ، مثل هاته المفاهيم التي يعسر على الجدل التاريخي العيني أن يتمثلها ، فهذا الجدل كما نعلم يزعزع هاته المفاهيم وهو يستعملها كل مرة بشكل خاص . لسنا نريد إذن أن نرد الصهيونية الى مجرد وهم عام من شأنه أن يرمي بالوعي في مقاهات دائمة ، فقد يتبنى الوعي الشقي هذا الموقف بسهولة . علينا إذن أن ننقده ونضعه في أزمة بالنسبة للصراعات الايديولوجية الراهنة . فهذا هو الذي سيطبع **التهم** ويحدده ، لا من حيث هو حركة استسلام وخنوع لا مقتناه (مثلا يرتني كبير كارد) وإنما من حيث هم عنف يتجلى في الجدل ويكمن بين النصوص يمكننا أن نتحكم بشكل تدريجي في دائرة الشقاء الميتافيزيقية ونحيط بها .

ذلك ان للصهيونية من حيث هي واقعة تاريخية ومن حيث هي حديث، خصوصياتها واصالتها ، تلك الاصاله التي لا تكفي ان نكتب اسم اسرائيل بين مزدوجتين كي نقضي عليها . ونحن نريد هنا أن نخضع الايديولوجية الصهيونية للمخاض ، وذلك بتحليل كتابتها المتوترة ، واحالاتها الدائمة . اننا نرمي اساسا الى مناقشة مفاهيم الاصل والمكان المختار .

لنعد الى مفهوم الشقاء . فهو يتولد عن الزوج شعب معذب / شعب مختار ، فهذا الشعب يردد : اننا ، نحن اليهود ، حكم علينا بأن نكون شعب الله المختار ، وان شقاءنا يكمن في اختيارنا ، واختيارنا هو انفصالنا المطلق . وقيام دولة اسرائيل نهاية لهذا الشقاء . (ليس من شك في ان هاته النزعة الوجودية التي ~~يقول~~ **يقول** ~~بأن~~ **بأن** الوعي ستضايق جدل سارتر اشد المضايقة) . فهذا الشعب الذي أراد لنفسه ان يكون فوق التاريخ لا يمكنه ان يخترق الغياب المزدوج (غياب الذكرى والامل) الا عن طريق قلب ساخر للوعي الشقي : حيث تنقلب نهاية معنى الشعب اليهودي الى معنى الآخر ، ويصبح امتلاك الارض الموعودة اختلاسا للآخر . ويكون تأسيس الدولة قضاء على شعب . فبعد الابادة التي قامت بها النازية للقضاء على العنصر اليهودي يجيء القضاء على الشعب الفلسطيني ، وبعد الفصام المتبعثر يحل فصام تسهر عليه دولة وينظم وفق العقيدة الصهيونية . واخيرا فان هذا التاكيد الحاد على الوجود التاريخي يقابله الاصرار على كبت تاريخ الآخر واغفاله . وليس من شك في ان التاريخ قد تغير منذ الوعد الذي عقده اله اليهود مع شعبه . فما هي 4000 سنة قديم مضت . غير ان اسرائيل والصهيونية ما زالا يخيشان « منخفين الى الامام مجرورين الى الخاف » ولكنهما يصبان شقاءهما هاته المرة في جسم الآخر وقلبه الجريح . افلا يمكن لدولة اسرائيل ان تتحقق الا بهذه العودة الساخرة للتاريخ .

لقد اقترنت هاتئ العودة بعنف مسيطر زاده حدة ما لقيه اليهود عند العرب ومخصوصا خلال الاباحة الفازية الشنيعة . وقد دفع هذا أحد للمسيحيين المارونيين العرب الى ان يكتب « انني اود ان اقول ، حتى وان بدت هاتئ الكعابة نوعا من التشفي ، لا بد وان يكون العرب موضع حب الهي شديد كي ينقل اليهم الله الصلطف والعناية التي كان يصفها على الشعب اليهودي والتي دامت عشرين قرنا » .

من الواضح ان هذا الشقي اللاهوتي ليس الا الوجه المشوه للخطيئة والاثم ، ونحن لن نساك في تحليلنا هذا المسلك : ذلك ان المقال السجالي ضربة قوية ضد الكلام المذنب . لذا فهو لا يتحقق الا في منعة غير آثمة وعند عقل غير مذهب ، اي في عملية نقد حاسمة تقضي على المعرفة التي تتولد عن الوعي الشقي . فمن العسير علينا ان نذرف الصوع الابراهيمية على الكلمة الآثمة . فمن هو اليوم ، يا ترى اليهودي النافه ؟ ومن هو اليتيم ؟ ومن ينضم الى الحركات التقدمية والثورية ؟ ان الشعب الفلسطيني لا يمتلك الا ان يرفض الانفصام الصهيوني للوعي الشقي .

اذا ارجعنا الصهيونية الى مواقفها الاساسية وجدنا انها تقترح أحد اختيلايين : فالصهيوني يخطبنا (نحن القراء) : اما ان تكونوا متفقين معي ، وفي هلكة الحال ترفع عنكم كل شبهة او تكونوا غير متفقين . وفي هاتئ الحال ، اما ان تجاھروا بعداوتكم لليهودية او تضموها وحينئذ ستشعرون في ثناياكم بـ « عداة لليهودية » . كيف يمكننا اذن ان نخرج عن هاتئ الحيرة ؟ اذا خضتم في الحديث عن دولة اسرائيل واخفتم تنسقبونها وتبدون بعض التحفظ بصعد مشروعاتها فستعرضون انفسكم للتهمة بانكم اعداء اليهود ولأنكم عنصريون وضد الصهيونية واسرائيل بالاضافة الى نعوت أخرى من هذا القبيل ؟ فالصهيوني يتسلح بهاتئ السلسلة من الصفات السلبية كي يصنف اعداءه بسهولة عجيبة . فاذا كنتم من اليسار والمعارضين للصهيونية فسيسالكم : كيف استطعتم ان تتناسوا الابلادة التي قامت بها النازية ضد العنصر اليهودي ؟ واذا ابدعتم بعض الملاحظات حول الطابع الاستعماري المتسلط لدولة اسرائيل فان الصهيوني سينكو كل هذا وسيرد عليكم بان دولة اسرائيل لا يمكن ان تخضع الا لتخطيط نظري تقوم به الصهيونية ذاتها ولا يوكل قط الى الماركسية . ومجمل القول فان دولة اسرائيل تجد تبويرها بالنسبة للصهيوني في المشروع التي تعطيها هي لنفسها . وهذا الامر لا يزعج الصهيوني قط ، بل انه يكون على استعداد لئلا يرفض جميع النظريات الممكنة بمجرد ما يشتم فيها أدنى « براشعة اعداء لليهود » . واذا كنتم يساريا مسيحيا فان الصهيوني سيسالكم وما دخلك أنت ؟ فالاسبقية التي يعطيها الكتاب المقدس لليهود واصالتهم

تصبح المسيحي من ان يلتفتهم الدروس .. واذا كنت يساريا فان الصهيوني
سيتنبهك بكل بساطة : اهتم بالثورة داخل بلدك .

اما اذا كنت عربيا فان كلامك لن يعني بالنسبة اليه اي شيء . واذا
كنت فلسطينيا ؟ فيما يتعلق بهاته النقطة وخصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار
ما كتبه (مسراهي) فان بإمكاننا ان نتساءل عما اذا كان هناك وجود فعلي
للفلسطينيين بالنسبة للصهيوني . ففي مقال منمق كتب (مسراهي) : « ..
عرب العالم الاسلامي بأكمله دون أن يكونوا إسرائيليين أو أرمنيين ، أو
فلسطينيين كما يقولون » افترض ان (مسراهي) يأخذ هنا الامر مأخذ الجد
وهو يرى ان الهوية الفلسطينية ، والشعب الفلسطيني ليسا الا وهمين من
ابداع العرب لمضايقة جيرانهم . كل هذا يجعلني على استعداد لان اعتقد اننا
نعيش حلما مزعجا .

لا يهم الصهيوني الا أن يبين ما لايدولوجيته من امتياز نظري خاص :
فاذا كانت هناك نظرية ترفض المسلمات الصهيونية فلانها تنطوي على خطيئة
عظمى وتضمّر « مرارة عداء لليهود » فحتى (سارتر) الذي عودنا قدرة على
الجدال فريدة من نوعها - يحتار هنا ويتحول من مجادل الى (طاوي) مرتجل ،
ما دام يسلم في الوقت ذاته بالقضية ونقيضها . لكنه طاوي غير مقتدر ، لانه
يعجز عن أن يعبر عن التناقض الذي يكمن في موقفه الا في تمزق لا يمكن
تجاوزه : فهنا أيضا تجد الوعي الشقي وهو الذي يجعل (سارتر) يذرف
الدموع ، دون ان يستطيع وقفها عن طريق جدله المبهور . ها هنا أيضا لا نكاد
نصدق أنفسنا ، وسنعود في الوقت المناسب للحديث عن ضعف هاته الدموع
الاشقية . ولكنني أقول هذا مع التواضع الشديد لان عالمنا قد أصبح في جزء
منه سارتريا ونحن مدينون لسارتر بطريقة معينة في حث الحياة .

لنسلم الآن بان الخصمين يتجادلان دون مواجهة صريحة . ولنستحضر
مفاهيم الاصل والمكان المختار ، كما حللها واحد من أكثر الملفات جدية حول
هاته المسألة : يتعلق الامر بالملف الذي خصصته مجلة **الازمنة الحديثة** قبل
يونيو 1967 ، والذي لم يظهر الا بعد هذا التاريخ بالرغم مما أبداه المساهمون
العرب من رغبة مستعجلة في سحب مقالاتهم . فقد اوقفت الحرب الحوار الذي
كان قد بدأ على هذا النحو . بيد أن **الازمنة الحديثة** قد بادرت الى النشر ،
وخيرا فعات . يقدم لنا هذا الملف تشويها متكاملا . كما لو ان الخصوم (واجني
هنا المثقفين الذين ساهموا في هذا الملف) وعيا منهم بالذعر ، قد اقتصروا
على تسليم كلامهم لعنف الحرب .

سنعرض اذن ، وفقا لما اخترناه من مواضيع ، للمقالات الصهيونية
التي ساهم بها (بارنير) و (فيربلوفسكي) و (مسراهي) . لكي نتقرب

من فهم هذا الصراع ينبغي أن نميز بين تصورين لإسرائيل : فهناك إسرائيل الخرافية الوهمية ، ثم إسرائيل التاريخية ، بحيث تدعى هاته الثانية إقامة مشروعاتها على الأولى ، ما دام نقل الذنب واسقاطه على العرب بعد عملية الإبادة النازية لا يكفي وحده لأن يبرر إبعاد الفلسطينيين عن وطنهم . فخلق دولة يشكل بالنسبة لليهود ، كما يعني بالنسبة لنا ، حدثا لا يمكن أن ننكر طابعه الإيجابي . فالامر يتعلق بارادة قوة تريد ان تتحرر من الشقاء والشعور بالذنب وبالتالي الخروج « عن حدود الدائرة اليهودية » (كافكا) . فمن يستطيع إذن أن ينكر هذا الجانب الإيجابي المبدئي ؟ وعلى الذين يعيبون على إسرائيل تأسيسها المصطنع يرد (بارنير) عن طيبة وحسن نية : « هل يمكن أن نقول ان هاته دولة مصطنعة ، فهي توجد على مسافة أربع ساعات جوا من باريس ، ولها اقتصادها وجيشها ولغتها وطبقتها العاملة وسفاراتها في الاتحاد السوفيتي وفي فرنسا وفي أمريكا (ص. 416) . لا شيء أصدق من هذا وباستطاعة أي منا أن يتأكد من كل هاته الامور . فهاته الدولة تتمتع بوجود مثل باقي الدول الاخرى وما عسانا نريد بالاضافة الى ذلك ؟ فهل ينبغي علينا أن ننكر لاي هويته الوطنية ؟ ولكن هل يمكن أن نقبل في الوقت ذاته ان يكون هذا البحث عن الاصل سببا في القضاء على شعب آخر ؟ فعلى أي اساس تقوم إذن هاته المشروعات المزدوجة ؟ ذلك ان الشعب اليهودي ، كما يؤكد (بارنير) هو أيضا شعب يتجاوز التاريخ « وهو يتمتع « بحرمة » يهودية وهذا هو ما نطلق عليه إسرائيل الوهمية وسنرجع الى هاته النقطة فيما بعد .

وعندما نفصح الاساس الاستعماري المسيطر لهاته المشروعات فان بارنير يرد متعجبا : « ولكن أين المستعمرون » (ص 416) اينهم ؟ وأين عسانا نكونون ؟ ان الوعي الشقي يظهر قدرة كبيرة على التجاهل ، تجاهل الذات وتجاهل الآخر . ذلك ان الازدواجية التي كانت تكمن في البداية في الوعي الشقي قد انعكست ، فالصهيوني عندما ينزع من الفلسطينيين ممتلكاتهم يضيف عليهم خطيئته وشقاءه وهو يعتقد ان بإمكان الانتساب الى الارض - واعني التعلق الصوفي بارض الآباء - ان يخلص بالفعل من انقسام الوعي والخطيئة والذنب ، فإين يمكن ان يوجد الفلسطيني إذن - الفلسطيني الذي لا يعمل الا على رفض الشقاء المنقول - لا يمكن ان يوجد سوى في ذات الصهيوني وبالقرب منها . بيد أن الصهيوني يريد ان يقضي عليه سواء داخل الذات أو خارجها . فليس من الغريب إذن أن يؤدي به الامر الى الغائه التام . او بالاحرى فهو يوهم ، في انتظار هذا الالغاء ، بأنه لا يراه . وخلال هاته المهمة يسلط عليه حزبا مسترسلة تنكل به ، ويوجه اليه « رشاشة الصفع » على حد تعبير الشاعر (ميشو) . فيقال لنا بأنه فيما سبق ، وقبل وجود

دولة اسرائيل ، كان الفلسطيني يحيا ثائها في صحراء من الاحجار . وكان ينام نومة ذلك الذي يقول عنه (ميشو) : « من على الفراش لا نهدي اليه اى كرسي » . اما الآن وقد غزي البلد و « اعيد بناؤه » أين موضع الفلسطيني ؟ عينا أحاول أن أجد في هاته الدراسات اثرا قويا من شأنه ان يقنعني ان هذا الخروج عن دائرة الوعي الشقي قد يستبعد الشراسة نحو الآخر ومحاولة القضاء عليه . ان الحرب المعلنة ضد الآخر المنفي تصبح نظاما من الشراسة يغلفه سوء الطوية وبيزره تصوف معكوس . اجدني اذن مضطرا لان استخلص بان الوعي الشقي لا يمكنه ان يتجاوز بسهولة عن طريق تكوين دولة . فكشافته الانطولوجية ، والالام التي ولدها خلال آلاف السنين ، تتغذى على خطيئة الحياة كأنها « آلة تتمتع بالرغبة » . يقول نيتشه : « ربما لم يكن هناك شيء أكثر فظاعة ولا ازعاجا فيما قبل تاريخ الانسان ، من الآلة المتذكرة حيث نضع على شيء ما قطعة حديد متوهج كي يعلق بالذاكرة . اذ لا يعلق بالذاكرة الا ما لا ينفك عن التعذيب ، فعندما ترسم ذكرى المنفى والتشتت ، وذكرى الابداء النازية الدائرة الصهيونية فانها تخلف على جسم الفلسطيني الالام وينقله اليه .

لا بد وأن يكون هناك من يشارك الصهيوني تاريخ شقائه : وعلى هذا النحو تتاح للغرب الفرصة لان يكفر عن ذنبه ويرغم الفلسطينيين على أن يتقبلوا الميثاق الذي عقد منذ آلاف السنين بين اليهود والههم . هذا الفلسطيني الذي عقد هو بدوره الميثاق مع الهة أخرى وديانات أخرى وآلام أخرى ، والذي خطرت له الفكرة اللعينة بأن يختار وطنا وأرضا قطنها منذ ثلاثة عشر قرنا او يزيد . لكن الصهيوني سيبرد بأن هاته لم تكن الا مجرد فترة فراغ .

لنعد الى ما يقوله (بارنير) ولنستعرض الحجج التي يدلى بها فهو يدخل مع سارتر في نوع من الجدل ، ويحاول ان يبين ان اليهودي كان دوما يمتلك « تاريخا » (وهو تاريخ حفظ الذات من كل اضطهاد) وأمة يجمعها الايمان (بالخلود والخلاص النهائي) وتربطها المصالح (تضامن اليهود ضد كل الاطماع والمصائب ، (ص 423) . يستعرض (بارنير) هاته الحجج انطلاقا مما يطلق عليه التحدى والتخلي . وهو ينظر الى التاريخ كما لو كان حركة حلزونية ما دام التحدى (أى التاكيد على الفوارق) يولد تخلي الآخر . هذا التخلي الذي يقوى بدوره التحدى وهكذا دواليك . فعند ما يعطى (بارنير) الاسبقية للتخلي على التحدى فهو يخرج عن دائرة الجرم . وهو لا يقتصر على ان يلقي مسؤولية الخطا على الآخر ويثبت التحدى كموقف ايجابي . ويرى انه ارادة قوة أصيلة ، وينظر الى التاريخ العام للوعي اليهودي كما لو كان حركة خلاص ذاتي يتم في لحظتين . هذا التاريخ - كما تدعي الصهيونية - يؤسس « حرمة يهودية » من شأنها أن تعمر بصفة نهائية ارض فلسطين

فتملاً فراغها المدقع . انه تاريخ التحدي والتخلي . وما من شك في ان اليهودية تقف على قمة على الانهيار استطلاعت ان تلهم المشايخين لها قوة لا مثيل لها . بهذا المعنى فان اليهودية تظل بالنسبة لنا لغزا واختلافاً يبعثنا على الإعجاب والاثارة في الوقت ذاته . وكما نعلم فهي مثال نادر عن الايمان الجذري والثوري . فعندما كان الميثاق الالهي يسمح للفرقة بان يلتزم شملها حول اسرائيل من صنع الوهم وحول عبرها المقسمة ، فانه كان يحكم على الهوية الاصليه وعلى الوعي الشقي بالتساؤل الدائم حول المنفى الذاتي واختلافه المحفوظ . اختلافه الانطولوجي المتجاوز للتاريخ . ولكن ، مع حلول الجولة الاسرائيلية ، وحينما أصبحت الخرافة علامة على تاريخ عنيف يقضي على الآخر فان الايديولوجية الصهيونية وجدت نفسها عاجزة عن ان تفسر بشكل مقبول ومضبوط هاته الاستعاضة عن اسرائيل . اللهم بالجوء الى الرؤية الخرافية والاستدلال الذي يحصل الخاصل ، يقول (جول اسحاق) : ولولا هذا الايمان الذي يستبعد الآخر لا تكون هناك تفرقة ، ولولا التفرقة لا يمكن الاستمرار في الوجود ولولا هذا الاستمرار فلا بقاء لاسرائيل ، (اورده بارنير) . انه الصهيونية - كايديولوجية سياسية - تقوم على اليهودية مدعية في ذات الوقت ان القصص التي يرويها الكتاب المقدس تعكس الواقع كما هو . وهكذا يصبح الرمز الديني علامة على العنف النيوي . لذا فان الصهيونية مرآة تجعل الشعب الاسرائيلي ، الذي نحترمه ونحله ككل شعب - يأمل في تحقيق التصالح الوهمي بين اسرائيل الاسطورية واسرائيل التاريخية .

كيف يبرر بارنير هاته العودة الى الارض الموعودة ؟ لسرور بعض العبارات الواضحة أشد الوضوح ، والتي تصف ارض فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني : « فالبلاد قد اقامت غاباته واصبح جافا بدون ماء ، يبعث تخلفه على اليأس . فمساحات شاسعة بقيت دون استغلال وهي في حوزة ملاكين اقطاعيين لا يولونها أدنى اهتمام . اكتسحتها حمى الملايا . فاذا استثنينا بعض خيام البدو المتناثرة هنا وهناك فاننا نستطيع ان نقول ان هاته الاراضي غير عامرة وهي بالتالي قابلة للاستعمال » (ص 453) ان هاتيه الاشارة الى بعض الخيام المتناثرة لم تستطع ان تخفي بما فيه الكفاية سوء النية الذي يضمه (بارنير) . فهل يعقل ان ينكر الانسان الواقع الى هذا الحد . وبالإضافة الى هذا فان الصهيونية ترى ان دولة اسرائيل ليست مجرد خلاص بالنسبة لهذا الشعب المتشتت ، بل انها خلاص العرب والعالم أجمع . فالصهيونية من ابداع الحضارة شأنها شأن ما كان عليه الاستعمار . اما فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين فان (بارنير) يرتئي انهم سينصهرون داخل فينزالية تضم بعض شعوب الشرق الاوسط . يقول : « وعندما يحل مشكل

اللاجئين العرب في إطار فيدرالية بانصهارهم الجزئي في البلدان العربية واستقرارهم بها ، بالإضافة الى المساهمة المادية والتقنية لاسرائيل ، فان المعلنون الاسرائيلي العربي سيجد ميدانا خصبا للنمو ، (ص 547) لا يخفى علينا هنا مدى التلاعب بالكلمات . فبارنير يصهر الشعب الفلسطيني بان يفزع عنه اسمه الخاص . فهو لا يتكلم بتاتا عن الشعب الفلسطيني ولا وجود عنده الا **لللاجئين** . ففيما قبل كانت فلسطين مجموعة من الخيام المتناثرة في الصحراء . اما الآن فهي مجموعة من خيام اللاجئين . وفيما بعد ، يتكلم عن اللاجئين العرب لا عن الفلسطينيين . هل يسمح هذا الانكار المزوج بتأسيس فيدرالية بين شعوب الشرق الاوسط . وهكذا فنحن نجد انفسنا دوما امام نفسى القلب والجدال الساخرين . فالصهيونية تصر على اخفاء الآخر كي تخرج من المنفى الذي توجد به . حتى ولو أدى بها الامر الى ان تمحو وجوه الفلسطينيين وتنتزع عنهم اسمهم الخاص . انها تصر على ان تلقى مسؤولية الخطأ على الآخر ليقضي على شقائه . هذا بالرغم من ان (بارنير) يضطر الى ان يعترف « بان الامر يتعلق بمأساة وكل مأساة فان المتنازعين يكونان محقين ، فالعرب على حق في ان يقولوا انهم في فلسطين ومنذ ثلاثة عشر قرنا ، ولن تلبث بلدهم ، واليهود كذلك لا يخطئون الصواب عندما يذكرون بانهم كانوا قد استقروا قرب ضفاف نهر الاردن منذ أربعين قرنا ، وان البلد كان وما يزال أرضهم الموعودة » (ص 451) . وعلى هذا النحو تعطى الاسبقية للحق الطبيعي على الحق التاريخي وينتصر الاصل على الفوارق ، والمشروعية الرمزية على منطق التاريخ .

لنسط خلاصة موجزة لهذا الجزء من عرضنا . ان الادعاء الصهيوني بالقضاء على للشعب الفلسطيني ، ونزع أرضه لا يمكنه ان يقوم بشكل معقول على مشروعية تاريخية ، فمفارقة الايمان والوعي الشقي هي التي تستطيع وحدها ان تفسر هاته الرغبة في السيطرة . فهل يكون من قبيل الجد ان نعتد السلالة الوهمية للأرض كحجة حاسمة . اذ في هاته الحال ، كما قيل مرارا ، ينبغي إعادة التنظيم الجغرافي للعالم بدلالة الاصل والوعود الالهية التي ليست الا وعودا رمزية أقرب الى العبرة . اللهم ان شئنا ان نعتبر اننا في عهد الفتوحات حيث تكون الحرب والرمز أمرين يبرر بعضهما الآخر . ان دولة اسرائيل « تعتمد منهاجا تاميحيا » كما يقول مغنيلان يساريان - اصبحا الآن يتمتعان بالشهرة عن جذارة - كتبنا أغنية لا تخلو من أهمية عنوانها ضد - اوديب (اشير هنا بالطبع الى دولوز وغاتاري) . لكنه تلميح ينعكس على ذاته . فلشدة ما يتجاهل الآخر فانه ينتهي بان يتجاهل ذاته .

لنعرض الآن امقالة (زوي فريلوبسكي) اسرائيل وارنر اسرائيل . ان

قيمة هاته المقالة تكمن في انها تعتنق نزعة صهيونية اصيلة وتحاول في الوقت ذاته أن تجد لها تبريرات في العلوم الاجتماعية المعاصرة . ونتيجة ذلك هي التشويش في كل مرة : فأحيانا ينقل فربلو فسكي المفاهيم التقليدية كما هي في الكتاب المقدس الى حديث علمي في ظاهره ، وأحيانا أخرى يعتمد بنوع من التسفس على الرمز الديني كي يلفف التصورات (العلمية) وبهاته الكيفية فانه يفسر التقاليد عن طريق التقاليد وذلك بعد لف ودوران ، وإذا ما أردنا أن نفتتح بكل هذا فينبغي أن نتسلح بشيء غير قليل من التجاهل ، فعندما يستعمل (فربلوفسكي) مفهوم الاختلاف ، وهو مفهوم اساسي عوض مفهوم الاختيار (وينبغي أن نأخذ مفهوم الاختيار على أنه اختلاف أكثر منه تفوقا ، ص 376) فإنه لا يجد صعوبة في أن يلفق في الصفحة ذاتها هاته العبارة المفارقة : « إذا كان هناك شعب مختار ، فهناك أيضا أرض مختارة موعودة » أو هاته : « إن هذا الشعب (اليهودي) لا يمكنه أن يحقق ذاته بما فيه الكفاية الا ان » عن طريق اتحاد اقنومي مع الأرض ، « أوحينما يحاول فيما بعد أن يعيد تأويل التوراة : « أن التاريخ يتم بين الخليقة فان اله اسرائيل هو اله الاختيار لانه خالق الكون » (379) وهكذا يتخلص من مفهوم الاختلاف والفوارق ليعود الى المصادر والى هوية حمقاء . فعوضا عن تحليل علاقة الذات بالآخر ، وتحليل جدل الفوارق بين الثقافات ، يستعاض عن هذا باللجوء الى مفاهيم الذاتية والاصل والاختيار .

اما (جاك دريدا) الذي يتكلم عن معرفة بالامور فهو يكتب بصدد (يابيس) : « ولكن الذاتية عند اليهودي قد لا يكون لها وجود ، فربما كان اليهودي هو الاسم الآخر لهاته الاستحالة » لا يريد (دريدا) أن يخلط بين الامور عندما يجادل . وسنرجع لهاته النقطة في حينها . وما نريد أن نلمح اليه هنا هو ان الصهيونية بما انها عاجزة عن استيعاب جيد لمفهوم الفوارق فهي « أسطورة مثالمة » (دريدا) يعميها اختفاء وجه الهها (يافيه) . وتلك هي المفارقة التي يعاني منها الوعي الشقي ، فهو لا يقوم الا على الايمان الذي لا يكون قابلا بطبيعته للتفسير ، سواء اكان ايمانا ضعيفا أو قويا .

وحينئذ كيف نفهم ما يقوله (فربلوفسكي) : « ان ما شكل أحد اسباب شقاء الصهيونية هو انها لم تحقق مراميها في وقت لم تكن فيه القوميات العربية قد تطورت بعد (أو على الاصح في وقت لم ينم فيه بعد وعي القومية العربية نحو فلسطين) (ص 374) . فما يشكل أحد عناصر شقاء الصهيونية هو النهضة العربية واقتصد حدثا من بين الاحداث التي عرفها التاريخ العلمي . والعنصر الآخر في الشقاء هو الفلسطينيين بطبيعة الحال . انهما إذن قوميتان تولدتا خلال القرن التاسع عشر وكانتا شمرتين للتاريخ جامتا كرد فعل ضد

طغيان الغرب . هذا مع فارق اساسي وهو ان الصهيونية ظاهرة غربية تمت داخل اسوار الغرب ، بينما نشأت القومية العربية خارج تلك الاسوار كرد فعل ايجابي ضد الاستعمار والامبريالية . ان شقاء الصهيونية كما يرتئي (فربلوفسكي) يكمن في انها لم تتحين الفرصة حينما كان العرب ما زالوا يغطون في النوم وقد اضعفهم الاستعمار والبنيات الاقطاعية اللاهوتية الداخلية . وفي تلك الحال ما كانت الصهيونية ستجد الا استبدالاً مشروعاً لاستعمار بآخر . لقد ضيعت الصهيونية اذن الفرصة في ان تكون الوليد المباشر للامبريالية ، الشيء الذي لم يمنعها مع ذلك من ان تتبني حركة الطرد والتوسع الاستعماريين . فاذا ما سايرنا تفكير (فربلوفسكي) فلا يكون على الصهيونية حتى ان تبرر غزوها لفلسطين . ذلك ان مشروعية هذا العمل ستكون قد تحققت بما قام به الاستعمار فيما قبل . وما دامت جميع الامم قد تولدت بهاته الكيفية فلن يكون هناك سبب معقول للارتياح في هذا العمل . وعلى العموم فان هذا العمل سيخول الصهيونية ان تساير منطق العقل الشمولي . لذا فهي مستعدة لتكمل ما يتطلبه الكتاب المقدس والاستعمار ، ان تشوه التاريخ ، وماساتها تكمن في انها لا تفهم فهماً جيداً جدل الهوية الوطنية والفوارق الكامنة في الوعي اليهودي . فهل بإمكاننا ان نشترط هذا على الصهيونية وحدها ؟ طبعاً ، لا . بيد ان الفوارق في حالة الصهيونية سرعان ما تستدرك عن طريق ايديولوجية مغلوطة ضالة لا تحرك ذاتها ولا مدى بعدها عن الآخر .

ملاحظة :

- هذا النص جزء من كتاب يعمل بعنوان « الوعي الشقي » ، سيصدر ضمن الاعمال الفكرية لمبد الكبير الخطيبي باللغة العربية ، نقل هذا الكتاب الى العربية بمبد السلام بمبد العلي .